فرح أنطون

١٨٧٤ – ١٩٢٢

ملحمة فرح أنطون تشبه بكثير من الوجوه والمعاني والمواقف والأفكار التنويرية ملحمة شبلي الشميل. كلاهما لبنانيان هاجرا إلى مصر في شبابهما وتحوّلا إلى رمزين كبيرين من رموز حركة النهضة والتنوير على امتداد حياتهما منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الربع الأول من القرن العشرين. ولكل منهما شخصيته التي يختلف فيها عن الآخر، حتى وهما يلتقيان في الكثير من أفكارهما ومواقفهما من القضايا التي كانت تشغل مصر والعالم العربي في تلك الحقبة. إلا أن فرح أنطون الذي تجوّل في العالم وصولاً إلى الولايات المتحدة الأميركية اكتشف التناقض بين ما حققته من تقدم وبين ما ارتبط بنظامها الرأسمالي من ظلم. وقد نوّع مجالات عمله، فعمل في الصحافة، وأنشأ مجلة "الجامعة" الشهيرة، وأصدرها في مصر وفي الولايات المتحدة الأميركية. وكتب على صفحاتها في الفكر والسياسة والأدب. وإذ أعطى للفلسفة قسطاً في ميدان عمله البحثي، فإنه كتب في القضايا الاجتماعية وفي الأدب، وأصدر عدداً من الروايات. وكان للعمل في المسرح قدر في نشاطه الأدبي. وخاض غمار السياسة التي قادته إلى أن يصبح وفدياً على طريقته، تأكيداً لبعض سياسات هذا الحزب ونقداً صريحاً لبعض سياساته. وأصبح في هذين التعدد والتنوع في ميادين نشاطه السياسي والفكري علماً من أعلام حركة الفكر التنويري، وواحداً من رموز الحركة الاشتراكية، أسوة بصديقه شبلي الشميّل.

ولد فرح أنطون في عام ١٨٧٤ في مدينة طرابلس اللبنانية. تلقى دروسه الابتدائية في مدارس المدينة. ثم انتقل إلى مدرسة كفتين التي أنهى فيها دراسته الثانوية. ومارس العمل منذ شبابه الباكر مع والده في التجارة. ثم استقل عن والده في العمل التجاري بعد فترة قصيرة من العمل معه. غادر ذلك العمل لأنه رأى فيه ما يتعارض مع همومه واهتماماته، ومع أخلاق أمثاله من الناس. وكانت قد بدأت تستولي عليه الاهتمامات العلمية في ميادينها المختلفة. ثم تولى إدارة مدرسة أهلية في طرابلس كانت قد أنشأتها جمعية خيرية للروم الأرثوذكس. لكنها لم تكن مدرسة طائفية. فرئيسها بروتستانتي والمدير والناظر مارونيان وأستاذ اللغة العربية مسلم. ولم يكن فيها سوى أورثوذكسي واحد.. فتركت هذه المدرسة

المختلطة أثراً هاماً في نفوس تلاميذها وفي نفس مديرها. فكتب فرح قائلاً: "إن هذه المدرسة قد تركت أثراً أدبياً لم يبرح نفسي قط، ولعله كان ذا تأثير على أفكاري في كل حياتي".

وقد أسس في طرابلس جمعية أدبية وبدأ يمارس الكتابة. واعتبر أن "القلم حرفة شريفة، وهو خير ذريعة لخدمة الشرق وأن صرير القلم خير صارخ في الآذان لإيقاظ أهل الأوطان الشرقية" ... وبدأ يعتقد أنه مجند من المجندين من أجل هذه المهمة.

ولأن مصر هي في نظره "المركز الأوسط لجميع العالم العربي ومنه تنتشر الخدمة الوطنية الأدبية انتشار الأشعة إلى جميع الجهات" فقد قرر أن يخوض معركته فوق أرضها. فسافر إلى الإسكندرية في عام ١٨٩٧ وبدأ يكتب بأسماء مستعارة في عدد من الصحف. ومن أشهر مقالاته في ذلك الحين مقال نشره في "الأهرام" بعنوان "دائرة الحق" ووقعه باسم "سلامة"، ولم يلبث أن قادته حرفة الكتابة إلى إصدار مجلة باسمه". وكان ذلك في عام ١٨٩٩. وأعطى للمجلة في البداية اسم "الجامعة العثمانية" داعياً على صفحاتها كل شعوب الشرق التي تحكمها الدولة العثمانية للعمل المشترك ضد الغرب الاستعماري. لكنه كان يروج في صفحاتها علوم الغرب، التي كات تزخر بآراء ومذاهب مختلفة، الكثير من عقائد الغرب الاجتماعية مما كان سائداً في الشرق، رغم أنه كان يكره الغرب ويكره سياسات حكامه. وقد لاقت "الجامعة" انتشاراً لم يكن يتوقعه. وبدأت تستقطب الأدباء والمفكرين. وكانت "الجامعة" أيضاً ملتقى للذين اعتبروها مجلتهم ومجلة أصحاب المبادئ الجديدة المتحررة عقولهم من القديم. ولما انتقلت جريدة "الأهرام" من الاسكندرية إلى القاهرة طلب منه سليم تقلا أن يتولى تحرير "صدى الأهرام" في الاسكندرية فلبّى طلبه مع الاستمرار في إصدار مجلته "الجامعة". واستمر في العمل ستة أشهر بعد أن قرر تقلا أن يلغي "الصدى". ثم أصدرت شقيقته روز زوجة نقولا الحداد مجلة "السيدات". وكان يعاونها في تحريرها. وفي عام ١٩٠٧ اقترح عليه ابن عمه التاجر الياس أنطون أن يرافقه في رحلته إلى أميركا وأن يمارس

نشاطه الصحفي هناك، باعتبار "أن المغتربين هناك حقل واسع لبث مبادئ الحرية". فسافر الثالوث فرح وروز ونقولا وهناك أصدروا "الجامعات" مجلة شهرية وأخرى أسبوعية وثالثة يومية. لكنها سرعان ما توقفت جميعها عن الصدور لأسباب مالية.

خلال وجود فرح في أميركا تبنّى فكرة اشتغال المغتربين السوريين واللبنانيين بالزراعة، وحثهم على ذلك واستكتبهم عرائض تطالب الحكومة الأميركية بمنحهم الأرض بشروط سهلة. ولأن فرح كان ينفذ كل فكرة تطرأ على ذهنه بكل الحماس الواجب بل بكل العنف الممكن فقد وهب نفسه تماماً لهذا المشروع وجاب أميركا كلها حيث كان يوجد فيه مغتربون يدعوهم إلى احتراف الزراعة.

خلال جولته في أميركا وقف وقفته الشهيرة أمام شلالات نياجارا حيث كتب مقاله الشهير "في ظل شلالات نياجارا". وهو مقال لقي شهرة واسعة جداً. فأمام روعة الشلال وقف فرح أنطون خاشعاً يتعبد. وهي كانت عبادة من نوع خاص، هي عبادة فرح أنطون. وجاء في المقال:"أتذكر أيها الشلال يوم كان شاطئاك مرتعاً لأولئك الهنود المساكين أن يصل إليك البعض ويغتصبوا أرضهم هذه ظلماً وعدواناً؟" ثم تحدث عن عملية البناء الرأسمالي التي غيرت وجه أميركا وإحالته إلى محتمع جديد قائلاً: "قد غيّروا أرضك ومن عليها أيها الشيخ. وهم يظنون أنهم حسنوها وحسنوك وجملوها وجملوك، وما جمالهم إلا كجمال المرأة الدميمة زخرف خارجي وطلاء سطحي. حك هذا الطلاء قليلاً فتجد تحته جيفة منتنة". ويتابع قائلاً: "إن وحوش الأمس التي كانت ترتع على شاطئيه أرحم وأجمل من وحوش الرأسمالية فإن الأمم تتعادى وتتسلح تأهباً لاقتتال أفظع من اقتتال الذئاب. والشعوب يأكل في داخلها كبيرها صغيرها وقوّيها ضعيفها كما تفعل الأسماك. فروكفلر يملك من المال ألف مليون بينما ملايين من البشر يستعطون الخبز ولا يجدونه. وهو يستخدمهم بأجور تافهة لزيادة ثروته الملطخة بدمائهم وعرقهم. وهم يسكتون ويعملون لأنهم مضطرون. والسلطة في الأرض ضعفت وكادت تنحل فإن الناس أسقطوا

العروش والملوك ولكنهم أقاموا مكانها ملوكاً لكل واحد منهم ملايين من الرؤوس، فقويت بذلك سلطة المشعوذين والدجالين والجهلاء الناصحين الذين يتملقون الشعوب ويضلونها كما كان أخصاء الملوك يتملقونهم ويضلونهم والأفراد يتخاصمون ويتعادون ويفترس بعضهم بعضاً بأيديهم وألسنتهم وأقلامهم، تنازعاً على الرزق والسيادة.. وقبح هذا الرزق وهذه السيادة إذا كان لا يبلغ إليهما إلا بالرجوع إلى وحشية وهمجية أشد من الوحشية والهمجية الأولى.. فإذا كان كل هذا هكذا، أيها الشلال، فأين الارتقاء الذي يزعمونه؟ وما فائدتك في استبدال ذئابك القديمة بهذه الذئاب الجديدة التي لها طباع تلك؟".

ويتحدث نقولا الحداد عن تلك الفترة من حياة فرح فيقول "بهذه الروح عاد من أميركا إلى مصر فإذا بالشعب المصري قد انتقل من دور العلم إلى دور العمل. ووجد أن الزرع الذي زرعه فقيد الوطن مصطفى باشا كامل وأنصاره قد نضج وأن وقت الحصاد قد حان، وجد أن النهضة الوطنية التي كانت تختمر في السنين الماضية قد تحركت فصادفت حركتها هوى في نفسه وأي هوى. رأى أن فكرة "التنفيذ" التي نضجت في نفسه نضجت أيضاً في هذا الوطن الذي أصبح محور النهضة الشرقية كلها... فانصرف عن النظريات الفلسفية إلى العمل، وتحول من العلم إلى السياسة".

وكانت "الجامعة" قد أغلقت. والحقيقة أن لغطاً كثيراً قد تردد حول موقف فرح من إصدار "الجامعة"، فقال البعض إنه هجرها ليتفرغ لكتابة أكثر ربحاً هي كتابة المسرحيات. وقالت "الهلال" إنه أخفق في إصدارها بعد عودته وألمحت أن السبب كان قلة المال. وترد روز أنطون أخت فرح على "الهلال" قائلة: "إن فرح لم يقفل "الجامعة" لقلة المال لأنه لو أراد المال لكان أتاه من بابه كما فعل غيره من أهل الصنعة. لكنه أقفل "الجامعة" لوقت معين لسبب هام شريف لا يسمح لي بذكره. ولكنني سأذكره في حينه إنصافاً لتلك الروح التي يحق أن نسميها عالية شريفة لأنها رفضت كل شيء حرصاً على شرف المبدأ".

تلك هي المرحلة الأولى من حياة فرح أنطون التي استندت في عرضها إلى عدد من المراجع أهمها تلك الدراسة الشاملة التي وضعها رفعت السعيد عن فرح أنطون. وهي دراسة قيمة أكمل فيها السعيد قراءته لثلاثة لبنانيين هم شبلي الشميّل ورفيق جبور وفرح أنطون.

لكن فرح أنطون لم يكن صحافياً وحسب. بل هو كان مفكراً في الأساس. واستخدم أدبه الروائي والمسرحي فضلاً عن عمله الصحفي للدفاع عن أفكاره. ويقول مارون عبود الأديب الروائي عن فرح أنطون في أحد فصول كتابه "رواد النهضة الحديثة": "في فرح أنطون شخصيتان: المؤلف والمترجم، ولكن الأثنتين واحدة. يترجم رواية الثور الفرنسية لديماس، كما يؤلف ثورة العرب في أورشليم الجديدة روايته الخالدة. لم يكتب الرواية إلا لغرض، ولم يخط كلمة إلا دفاعاً عن مبدأ سام، أو سعياً وراء مثل أعلى. ومن يقرأ تحيته لتمثال الحرية يعلم كيف مزج صوفية الشرق بعلمية الغرب، حتى إذا آب بالفشل ودّع العالم الجديد بخطبته الخالدةأمام شلال نياغارا. ففرح هو المفكر المحرر حديثاً من عبوديته، فلا يكاد يرى أخاً معتوقاً مثله حت يصافحه مهنئاً ويتمنى الفرج للمسجونين الآخرين".

ورغم أهمية الجانب الروائي في سيرته فإن سر الأدب في سيرته يكمن في أفكاره التي كان فيها رائداً مع شبلي الشميل ونقولا الحداد ورفيق جبور وآخرين. وهي أفكار تنويرية استكمل فيها هذان المفكران فكر النهضة في القرن التاسع عشر، ارتقاءً نحو مزيد من الوضوح، ومزيد من التنوير. وهي أفكار أعطت للعقل الدور الأساسي في حياة البشر. وكان لفرح أنطون مثل شبلي الشميل دور في ترويج الفكر الاشتراكي كل منهما على طريقته. وكانا بذلك سباقين في الدعوة إلى الاشتراكية كفكر علمي وعقلاني، وصولاً إلى اعتبارها بالنسبة لكليهما مستقبل العالم العربي والعالم.

والحديث عن فرح أنطون المفكر ينقلنا فوراً إلى الجزء الأساسي من سيرته. فهو كان أولاً نصيراً للعقل وللحرية، ونصيراً للعدالة الاجتماعية. وقد قادته هذه الأساسيات في فكره إلى أن يعلن انتماءه إلى

الاشتراكية. إذ هو رأى فيها الطريق إلى ما اعتبره الأساس في حياة البشر الذي يتلخص بالجمع بين الحرية والعدالة الاجتماعية. فهي الحقيقة، في نظره، لكن الوصول إلى الحقيقة ينبغي برأيه البحث عنها. لذلك كرّس جهده للبحث عنها. ولأن الاشتراكية صارت طريقه إلى الحرية فإنه يقول في هذا الصدد مبيناً الفرق بين إشتراكية القرن التاسع عشر والقرن العشرين: "... إن من أعمال القرن التاسع عشر الاجتماعية استعجال أمر الاشتراكيين استعجالاً نفع المبادئ الديمقراطية وأفاد الأمم إفادة تذكر. وتفصيل ذلك يطول. فنكتفي بهذا البيان الوجيز. فأملنا الآن موضوع فيك أيها القرن العشرون".

لكن من أهم ما تركه لنا فرح أنطون من تراثه العظيم هو سجاله مع الشيخ محمد عبده الذي يظهر فيه تألقه الفكري العقلاني. وقد جاء ذلك السجال في أعقاب البحث الذي نشره فرح أنطون في مجلة "الجامعة" (١٩٠٢) حول تاريخ ابن رشد وأساس فلسفته الذي تعرّض فيه لاضطهاد المفكرين والعلماء على يد السلطات الدينية في تلك المرحلة من الحضارة العربية التي كان لابن رشد زملائه في الفكر التنويري دور كبير أكملوا فيه ما كان قد بدأه فلاسفة اليونان في التاريخ القديم. وفور نشر ذلك البحث بادر الشيخ محمد عبده للرد عليه دفاعاً عن الاسلام. واستمر السجال وبلغ ست مناظرات تداخلت فيها المواقف بين آراء دينية وآراء علمانية.

يطول الحديث عن فرح أنطون وعن ملحمة سيرته وملحمة أفكاره ومواقفه السياسية والاجتماعية. وأنهي هذا البحث بفقرة من المقدمة التي كتبها جابر عصفور لرواية فرح أنطون "الدين والعلم والمال" التي حاول فيها أن يعرض أفكاره الفلسفية العلمانية الطابع. يقول جابر عصفور في تقديم الرواية: "ماذا يحدث عندما تتصارع قوى الدين والعلم والمال، وتتحول العلاقة بينهما إلى علاقة تنابذ وقتال بدل أن تكون علاقة سلام ووئام أو حوار وتفاعل، فتنفي كل قوة منها غيرها، متصورة أنه نقيضها الذي لا بد أن تمحوه من الوجود؟ هذا هو السؤال الأساسي الذي كان يؤرق فرح أنطون (١٨٦١– ١٩٢٢)، ويدفعه إلى

صياغة رؤية فنية متميزة، يستخدم فيها التلميح بدل التصريح، والمجاز بدل الحقيقة، والرمز بدل الإشارة المباشرة. وهي رؤية ظلت تحلم بنوع مغاير من الانسانية، أطلق عليه فرح أنطون إسم "الإنسانية الجديدة" التي تتحقق فيها أحلام البشر بعالم مثالي يقوم على التوازن بين القوى والمصالح والاتجاهات والمعتقدات. ولكي يبرز فرح أنطون معنى هذا العالم وأهميته، من منظور يوتوبيا المستقبل الذي حلم به، صاغ روايته القصيرة الفريدة "الدين والعلم والمال"، ونشرها ضمن مطبوعات مجلة "الجامعة" التي كان يصدرها من مدينة الاسكندرية في أول يوليو سنة ١٩٠٣. كان غلاف الرواية يحمل عنواناً رئيسياً هو "الدين والعلم والمال" وعنواناً فرعياً "المدن الثلاث". وتحت العنوان الفرعي شرح لمعنى العنوان وأحداث الرواية على السواء، حيث الإشارة إلى مدينة الدين ومدينة العلم ومدينة المال وما جرى بين سكانها من النزاع ودعاوى كل فريق على خصمه، وكيف انتهت مشكلة هذه المدن التي هي أكبر المشاكل عند كل الأمم والشغل الشاغل لفلاسفة العمران ورؤساء الحكومات، وأسفل الشرح اسم المؤلف فرح أنطون، منشئ مجلة "الجامعة"، وفي أسفل صفحة الغلاف من ناحية اليسار جملةأشبه بالشعار تقول: "فليحذر العالم من يوم يصير فيه الضعفاء أقوياء والأقوياء ضعفاء". وهي جملة تحمل معنى الإنذار الذي يشير إلى سيطرة الأقوياء على الضعفاء، وما تنطوي عليه هذه السيطرة من إسراف لا بد أن يؤدي إلى تمرد الضعفاء ومحاولتهم صياغة عالم جديد يحقق لهم ما حرموا منه".